ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٥٦ ﴾

يخبر الحق سبحانه رسوله بما سيكون ، وأن القوم لن يتركوا هذه الآية ، إنما سيتعرضون لها بالإيذاء ، فقال : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ .. ١٥٦ ﴾ [الشعراء] لكنهم تعدَّوْا مجرد الإيذاء والإساءة فعقروها .

ثم يتوعدهم : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٥٦ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ ﴾

قال(عقروها) بصيغة الجمع ، فهل اشتركتْ كل القبيلة فى عَقْرها ؟ لا بل عقرها واحد منهم ، هو قدار بن سالف[1] ، لكن وافقه الجميع على ذلك ، وساعدوه[2] ، وارتضوا هذا الفعل ، فكأنهم فعلوا جميعاً ؛ لأنه استشارهم فوافقوا .

﴿ فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ ﴾ [الشعراء] وقال العلماء : الندم مقدمة التوبة.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ ﴾

---

(١) كان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ، يزعمون أنه كان ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه ، وهو سالف ، وإنما هو من رجل يقال له ضيان ، ولكن ولد على فراش سالف . [ابن كثير فى تفسيره ٣٢٨/٢] .

(٢) انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغووه غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ٤٨ ﴾ [النمل] .

فإنْ قُلْتَ : كيف يأخذهم العذاب وقد ندموا ، والندم من مقدمات التوبة ؟

نعم ، الندم من مقدمات التوبة ، لكن توبة هؤلاء من التوبة التى قال الله عنها : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء]

إذن : ندموا وتابوا فى غير أوان التوبة ، أو : أنهم أصبحوا نادمين لا ندمَ توبة من الذنب ، إنما نادمون ؛ لأنهم يخافون العذاب الذى هددهم الله به إنْ فعلوا .

ثم تُختم هذه القصة بهذا التذييل الذى عرفناه من قبل مع أمم أخرى مُكذِّبة :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

عزيز : يَغلب ولا يُغلَب ، ومع ذلك هو رحيم فى غَلَبه .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قصة أخرى من مواكب الأنبياء والرسل :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ[1] الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

فقال هنا أيضاً ﴿ أَخُوهُمْ .. ﴿١٦١﴾ ﴾ [الشعراء] لأنه منهم ليس غريباً

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٤٤) : « هو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها ، التى أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهى مشهورة ببلاد الغور بناحية حيال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك » .

عنهم ، وليُحنِّن قلوبهم عليه ﴿ألا تَتَّقُونَ (١٦١)﴾ [الشعراء] إنكار لعدم التقوى ، وإنكار النفى يطلب الإثبات فكأنه قال : اتقوا الله .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)﴾

وهكذا كانت مقالة لوط عليه السلام كما قال إخوانه السابقون من الرسل ؛ لأنهم يصدُرون جميعاً عن مصدر واحد .

ثم يخصُّ الحق سبحانه قوم لوط لما اشتُهروا به وكان سبباً فى إهلاكهم :

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)﴾

فكأنها مسألة وخصلة تفردوا بها دون العالم كله .

لذلك قال في موضع آخر : ﴿أتأتُون الفَاحشَة ما سبقكُم بها منْ أحد مِّن العالمين (٨٠)﴾ [الأعراف]

أى : أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، ولكنهم فعلوها ، فوَصْفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾

يعنى : كان عندكم مندوحة عن هذه الفعْلة النكراء بما خلق الله لكم من أزواجكم من النساء ، فتصرفون هذه الغريزة فى محلها ، ولا تنقلونها إلى الغير .

أو ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم .. (١٦٦) ﴾ [الشعراء] أى : أنهم كانوا يباشرون هذه المسألة أيضاً مع النساء فى غير محلّ الاستنبات ، فقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

البعض يظنها على عمومها وأن ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] تعطيهم الحرية فى هذه المسألة ، إنما الآية محددة بمكان الحَرْث واستنبات الولد ، وهذا محله الأمام لا الخلف .

لذلك قال بعدها : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء] والعادى هو الذى شُرع له شىء يقضى فيه إربته ، فتجاوزه إلى شىء آخر حرَّمه الشرع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾

أى : إن لم تنته عن ملامنا ومعارضتنا فيما نفعله من هذه العملية ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾ [الشعراء] كما قالوا فى آية أخرى : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦) ﴾ [النمل] أى : لا مكان لهم بيننا ، لكن لماذا ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل] سبحان الله جريمتهم أنهم يتطهرون ، ولا مكان للطُّهْر بين هؤلاء القوم الأراذل .

ثم يقول الحق سبحانه عن لوط :

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

وفَرْقٌ بين كوني لا أعمل العمل ، وكوْني أكره مَنْ يعمله ، فالمعنى : أنا لا أعمل هذا العمل ، إنما أيضاً أكره مَنْ يعمله ، وهذا مبالغة في إنكاره عليهم .

ثم يقول لوط :

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

لم يملك لوط عليه السلام أمام عناد قومه وإصرارهم على هذه الفاحشة إلا أنْ يدعو ربَّه بالنجاة له ولأهله ، فأجابه الله تعالى ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً فِى الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الشعراء]

والمراد : امرأته التي قال الله في حقها : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم]

فجعلها الله - عز وجل - مثالاً للكفر والعياذ بالله ؛ لذلك لم تكُنْ من الناجين ، ولم تشملها دعوة لوط عليه السلام ، وكانت من الغابرين[1] . يعني : الهالكين .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

﴿ الآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الشعراء] أي : الذين لم يؤمنوا بدعوته ، ولم

(١) عن قتادة قال : غبرت في عذاب الله . أي : بقيت [تفسير القرطبي ٧/٥٠١٣] .

ينتهوا عن هذه الفاحشة ، ثم بيَّن نوعية هذا التدمير ، فقال ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) ﴾ [الشعراء] ولما كان المطر من أسباب الخير وعلامات الرحمة ، حيث ينزل الماء من السماء ، فيُحيي الأرض بعد موتها ، وصف الله هذا المطر بأنه ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) ﴾ [الشعراء] فهو ليس مطرَ خَيْر ورحمة ، إنما مطر عذاب ونقمة .

كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

وهذا يُسمُّونه (يأس بعد إطماع) ، وهو أبلغ في العذاب والإيلام ، حين تستشرف للخير فيُفاجئك الشر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالسجين الذي يطلب من الحارس شَرْبة ماء ، ليروي بها عطشه ، فلو حرمه الحارس من البداية لكانَ الأمر هيِّناً لكنه يحضر له كوب الماء ، حتى إذا جعله على فيه أراقه على الأرض ، فهذا أشد وأنكَى ؛ لأنه حرمه بعد أن أطمعه ، وهذا عذاب آخر فوق عذاب العطش .

وفي لقطة أخرى بيَّن ماهية هذا المطر ، فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

فالحجارة من ﴿ سِجِّيلٍ .. (٨٢) ﴾ [هود] أي : طين حُرق حتى تحجَّر وهي ﴿ مُّسَوَّمَةً .. (٨٣) ﴾ [هود] يعني : مُعلَّمة بأسماء أصحابها ، تنزل عليهم بانتظام ، كل حجر منها على صاحبه .

وبجمع اللقطات المتفرقة تتبين معالم القصة كاملة .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾

وتُختم القصة بنفس الآيات التى خُتِمتْ بها القصص السابقة من قصص المكذِّبين المعاندين .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قوم آخرين كذبوا رسولهم شعيباً :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١) ﴿١٧٦﴾ ﴾

الأيكة : هى المكان الخصْب الذى بلغ من خصوبته أنْ تلتفّ أشجاره ، وتتشابك أغصانها ، وقال هنا أيضاً ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء] مع أنهم ما كذَّبوا إلا رسولهم ؛ لأن تكذيب رسول واحد كتكذيب كُلِّ الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بمنهج واحد فى العقيدة والأخلاق .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ (٢) أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٥) أن أصحاب الأيكة ، وأصحاب الرس ، وأهل مدين أمة واحدة بُعث لها رسول واحد هو شعيب عليه السلام ، قال : « من الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم » ثم قال « والصحيح أنهم أمة واحدة وُصِفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدلّ ذلك على أنهما أمة واحدة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٥) : « إنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة .. فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً » . أما رأى القرطبى فهو مبنى على أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فليسوا أمة واحدة ، فقال : « لم يقل أخوهم شعيب ، لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة فى النسب » [تفسير القرطبى ٧/٥٠١٥] .

نلحظ اختلاف الأسلوب هنا ، مما يدل على دقَّة الأداء القرآنى ، فلم يقل : أخوهم شعيب ، كما قال فى نوح وهود وصالح ولوط ، ذلك لأن شعيباً عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة ، إنما كان غريباً عنهم .

وباقى الآيات متفقة تماماً مع مَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لأن الوحدة فى المنهج العقدى أنتجتْ الوحدة فى علاج المنهج ؛ لذلك قرأنا هذه الآيات عند كل الرسل الذين سبق ذكرهم .

ثم يأخذ فى تفصيل الأمر الخاص بهم ؛ لأن كل أمة من الأمم التى جاءها رسول من عند الله إنما جاء ليعالج داءً خاصاً تفشَّى بها ، وكانت الأمم من قبل منعزلةً ، بعضها عن بعض ، ولا يوجد بينها وسائل اتصال تنقل هذه الداءات من أمة لأخرى .

فهؤلاء قوم عاد ، وكان داءَهم التفاخُرُ بالبناء والتعالى على الناس ، فجاء هود ـ عليه السلام ـ ليقول لهم :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء]

وثمود كان داءهم الغفلةُ والانصراف بالنعمة عن المُنْعِم ، فجاء صالح ـ عليه السلام ـ يقول لهم : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)﴾ [الشعراء]

أما قوم لوط ـ عليه السلام ـ فقد تفرَّدوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وهى إتيان الذكْران ، فجاء لوط ـ عليه السلام ـ ليمنعهم ويدعوهم إلى التوبة والإقلاع :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء]

اما اصحاب الايكة ، فكان داءهم أنْ يُطففوا المكيال والميزان ، فجاء شعيب - عليه السلام - ليقول لهم :

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) ﴾

الكيل : آلة تُقدّر بها الأشياء التى تُكال ، ووحدته : كَيْلة أو قَدح أو أردب . والميزان كذلك : آلة يُقدَّر بها ما يُوزَن .

ومعنى ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) ﴾ [الشعراء] المخسر : هو الذى يتسبب فى خسارة الطرف الآخر فى مسألة الكيل ، بأن يأخذ بالزيادة ، وإنْ أعطى يُعطِى بالنقصان ، وفى الوزن قال ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (١٨٢) ﴾ [الشعراء]

والقسطاس : يعنى العدل المطلق فى قدرة البشر وإمكاناتهم فى تحرِّى الدِّقة فى الوزن ، مع مراعاة اختلاف الموزونات ، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلاً ، غير وزن العدس أو السمسم ، فعليك أنْ تتحرّى الدقة قَدْر إمكانك ، لتحقق هذا القسطاس المستقيم .

لكن ، لماذا خصَّ الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم ، ولم يذكر مثلاً القياس فى المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع ؟

قالوا : لأن الناس قديماً - وكانت أمماً بدائية - لا تتعامل فيما يُقاس ، فلا يشترون القماش مثلاً ؛ لأنه كان يُغزل ، تغزله النساء

ويغزله الرجال ، ولم يكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له ، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد .

وقديماً ، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة ، وفى هذه الحالة لا يوجد بائع على حدَة ولا مُشْترٍ على حدَة ، فلا يتفرد البائع بالبيع ، والمشترى بالشراء ، إلا فى حالة مبادلة السلعة بثمن ، كما قال تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. (٢٠)﴾ [يوسف] أى : باعوه .

أما فى حالة المقايضة ، فأنت تأخذ القمح تأكله ، وأنا آخذ التمر آكله ، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسلعة ، فإنْ قدَّرْتَ أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشتر . تقول : شَرَى وباع . وإنْ قدَّرْت الأثمان التى لا ينتفع بها انتفاعاً مباشراً كالذهب والفضة ، أو أى معدن آخر ، وهذه الأشياء لا تؤكل فهى ثمن ، أمّا الأشياء الأخرى فصالحة أنْ تكون سلعة ، وصالحة لأنْ تكون ثمناً .

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هى « سورة المطففين » ، يقول سبحانه : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين]

نقول : كال له يعنى : أعطاه ، واكتال عليه يعنى : أخذ منه . فإن أخذ أخذ وافياً ، وإنْ أعطى أعطى بالنقص والخسارة . والقرآن لا ينعى عليه أن يستوفى حقّه ، لكن ينعى عليه أن ينقص من حقِّ الآخرين ، ولو شيئاً يسيراً .

فمعنى (المطففين) من الشىء الطفيف اليسير ، فإذا كان الويل لمن يظلم فى الشىء الطفيف ، فما بال مَنْ يظلم فى الكل ؟

فاللوم هنا لمَنْ يجمع بين هذين الأمرين : يأخذ بالزيادة ويُعطى بالنقص ، أما مَنْ يعطى بالزيادة فلا بأس ، وجزاؤه على الله ، وهو من المحسنين الذين قال الله فيهم : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة]

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمُّون بقياس دقة آلات الكيل والوزن والقياس ، فَوُجدت هيئات متخصصة فى معايرتها والتفتيش عليها ومتابعة دقّتها ؛ لأنها مع مرور الزمن عُرْضَة للنقص أو الزيادة ، فمثلاً سَنجة الحديد - التى نزن بها قد تزيد إنْ كانت فى مكان بحيث تتراكم عليها الزيوت والتراب ، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت ، كما تنقص مثلاً أكرة الباب من كثرة الاستعمال ، فتراها لامعة ، ولمعانها دليل النقص ، وإنْ كان يسيراً .

وفى فرنسا ، نموذج للياردة وللمتر من معدن لا يتآكل ، جُعِلَتْ كمرجعٍ يُقاس عليه ، وتُضبط عليه آلات القياس .

ورأينا الآن آلات دقيقة جداً للوزن وللقياس ، تضمن لك منتهى الدقة ، خاصة فى وَزن الأشياء الثمينة ؛ لذلك نراهم يضعون الميزان الدقيق فى صندوق من الزجاج ، حتى لا تُؤثِّر فيه حركة الهواء من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا[1] فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾

البخس : النقص ، ومعنى ﴿أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] حقوقهم

---

(١) عثا عثواً : أفسد أشد الإفساد . [القاموس القويم ٢/٧] .

إذن ، فالنقص من حَقِّ الغير ذنب ، وقد يكون البخس بأخْذ الشيء كله غَصْباً ، أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

وهذا كله داخل في ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] كل ما ينقص الحق بأخذه بإنقاص . أو غَصْبٍ أو تصرّف على غير إرادة صاحبه فهو بَخْسٌ للشيء .

فكل ما ثبت أنه حق لغيرك إياك أنْ تعتدي عليه ، فالزكاة مثلاً حينما يقول ربك - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

فما دام قد قيَّده الشرع ، فلا تبخس أنت حَقَّ الفقير ، لأنك حين تتأمل هذا الحق المعلوم الذي جعله الله من مالك للفقير ، تجد أنه وُضِع بحكمة تُراعي مدى حركة المموِّل ، وما بذل من جهد ونفقات في سبيل تنمية ماله ، حتى وجبتْ فيه الزكاة .

فكلما زادتْ حركتك قَلَّ مقدار الزكاة في مالك ، فمثلاً الأرض التي تُسْقَى بماء المطر فيها العُشْر ، والتي تُسْقَى بآلة ونفقات فيها نصف العشر ، وفي عروض التجارة وتحتاج إلى حركة أكثر قال رُبْع العُشْر ، ذلك لأن الشارع الحكيم يريد للناس الحركة والسعي وتثمير الأموال ، حتى لا يأتي مَنْ يقول : كيف أسعى ويأخذ غيري ثمرة سعيي ؟

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء ، فإنما يحمي به الفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء . وقد حدَّد الشارع هذا الحق ، حتى لا تزهد في العطاء ، خاصة في الزكاة .

إن منهج الله يريد أنْ يُصوِّب حركة الحياة من الأحياء ، يريد ألاَّ يجري دم في جسد إلا بخروج عَرق من هذا الجسد ، وألا يدخل دم

فى جسد من عرق سواه ، وإلاَّ فسد المجتمع ، وضَنَّ كل قادر على الحركة بحركته ؛ لأنه لا يطمئن إلى ثمار حركته أنها لا تعود عليه ، أو أن غيره سيغتصبها منه بأىِّ لون من ألوان الاغتصاب .

عندها يفسد المجتمع ؛ لأن القوى القادر سيزهد فى الحركة فيقعد ، والآخذ سيتعوَّد البطالة والكسل والخمول ، ولماذا يعمل وما يجرى فى عروقه من دماء من عمل غيره ، وبمرور الوقت يصعب عليه العمل ، وتثقُل عليه الحركة ، فيركَنُ إلى ما نُسمِّيه (بلطجى) فى الحياة ، يعيش عالة على غيره .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُطمئن كل إنسان على حركته فى الحياة وثمرة سَعْيه ، فلا يتلصص أحد على ثمرة حياة الآخر ؛ لأنه إنْ كان عاجزاً عن الحركة فقد ضمن له ربُّه حقاً فى حركة الآخرين تأتيه إلى باب بيته ، سواء أكانت زكاةً أم كانت صدقة ؛ وبذلك تسلَم حركة الحياة للجميع .

لذلك أراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُعطينا الموازين الدقيقة التى تحفظ سلامة التعامل بين الناس : فإنْ كلْتَ لغيرك فوفِّ الكيل ، وإنْ وزنتَ فوَفِّ الميزان ، واجعله بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخس الناس حقوقهم بأى صورة من الصور .

ولا يقتصر الأمر على هذه المسائل فحسب ، إنما هى نماذج للتعامل ، تستطيع القياس عليها فى كل أمور الحياة فيما يُقَاس وفيما يُعَدُّ ، فى الأعمال وفى الصناعات .. إلخ .

إذن : فاحذر أنْ تتلصَّص على حقوق الآخرين ، أو أن تبخسها ، بأىِّ نوع من أنواع التسلُّط : غَصْباً أو اختطافاً أو سرقةً أو اختلاساً أو رِشْوة .. إلخ .

وقلنا : إن السرقة أن تأخذ شيئاً من حِرْزه في غير وجود صاحبه ، والخطف يكون صاحب الشيء موجوداً ، لكنك تأخذه خَطْفاً وتفرّ به قبل أن يُمسك بك ، فإنْ أمسك بك فغالبْتَه وأخذتها رَغماً عنه فهي غَصْب ، أما الاختلاس فأنْ تأخذ من مالٍ أنت مؤتمَنٌ عليه ، ما لا يحقّ لك أخْذه .

فإذا علم كُلُّ متحرك في الحياة أن ثمرة حركته تعود عليه ، وعلم كل غير متحرك أنه يموت جوعاً إنْ لم يعمل وهو قادر دبَّتْ الحركة في كل الأحياء ، وهذا ما يريده الله تعالى لخليفته في الأرض خاصة ، وقد خلق لنا سبحانه العقل الذي نفكر به ، والطاقة التي نعمل بها ، والمادة التي نستعين بها ، فكلُّ ما علينا أن نُوظّف هذه الإمكانات التي خلقها الله توظيفاً مثمراً .

ثم إنْ كانت الزكاة كحقٍّ معلومة محددة ، فهناك حَقٌّ آخر غير مُحدَّد ، في قوله سبحانه : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) ؛ لأن المراد هنا الصدقة المطلقة ، وقد تركها الحق - تبارك وتعالى - ولم يُقيِّدها ليترك الباب مفتوحاً أمام أريحية المعطي ، ومدى كرمه وإحسانه ؛ لذلك جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن صفات المحسنين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولأن الحق هنا تفضُّل وزيادة تركه الشارع الحكيم دون تحديد .

وعجيب أن نرى أصحاب الأموال حين يُخرج أحدهم رُبْع العشر

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجع] .

مثلاً من مـاله ، لا ينظر إلى ما تبقَّى له من رأس المـال ، وهى نسبة ٩٧,٥٪ ، وينظر إلى حَقِّ الفقير وهو يسير ٢,٥٪ .

فنراه يحتـال عليه فيُؤثر به أقـاربه أو معارفه ، أو يضعـه بحيث يعفيه من حق آخر ، كالذى يعطى زكاته للخـادمة مثلاً ، ليُرضى أمها حـتى لا تأخـذهـا من يده ، ومنهم مَنْ يضع أمـوال الـزكـاة فى بناء مسجد أو مدرسة أو مسـتشفى ؛ وهذا كله لا يجوز ؛ لأن مال الزكاة حَقٌّ للمسـتحقين المعـروفين نصاً فى كتـاب الله ، ولا يصح أنْ يُوجَّه مال الزكاة لشيء ينتفع به الغنى أبداً .

ثم يقـول سـبحـانه : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ١٨٣﴾ [الشعراء] عثـا : أى أفسد . فـالمعنى : لا تُفسـدوا فى الأرض ، فلماذا كرَّر الإفسـاد مرة أخرى فـقال ﴿مُفْسِدِينَ ١٨٣﴾ [الشعراء] ؟ قالوا : المـراد : لا تعثَـوْا فى الأرض حالةَ كـونكم مفسدين ، أو فى نيـتكم الإفساد .

وليس فى الآية تكرار ؛ لأنه فرَّق بين إفساد شيء وأنت لا تقصد إفساده ، إنمـا حركتك فى الحيـاة أفسدتْه ، وبين أنْ تُفسـد عن قصد وعَمْـد للإفـساد ، حتـى لا نمنع العقـول أن تفكر وتُجرِّب لتـصلَ إلى الأفضل ، وتُثْرى حـركة الحياة ، فـما دُمْتَ قد قصـدتَ الصلاح ، فلا عليك إنْ أخطأتَ ؛ لأن ربك - عَزَّ وجَلَّ - يتـولى تصحيح هذا الخطأ ، بل ويُعوِّضك عنه ، فمَن اجتهد فـأخطأ فله أجر ، ومَن اجتهد فأصاب فله أجران[1]

---

(١) عن عمـرو بن العاص أن رسـول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحـاكم فاجـتهد ثم أصـاب فله أجران . وإذا حكم فـاجتهـد ثم أخطأ فله أجر » أخـرجه البخـارى فى صحيـحه (٧٣٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٧١٦) كتاب الأقضية .

إذن : المعنى : لا تُفسدوا فى الأرض وأنتم تقصدون الإفساد ، لكن فكيف نُفسد الأرض ؟ إن إفساد الأرض يعنى إفسادَ المتحرك عليها ؛ لأن الأرض خُلقَتْ للإنسان ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

وقد خلقها الله تعالى على هيئة الصلاح ، والإنسان هو الذى يُفسدها ، بدليل أنك لا تجد الفساد إلا فيما للإنسان دَخْل فيه ، أما ما لا تطوله يده ، فيظل على صلاحه ، وعلى استقامته وسلامته .

والإنسان الذى خلقه الله وجعله خليفة له فى أرضه طُلب منه عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها ، تحقيقاً لقول ربه عزَّ وجلَّ :
﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

ولا يصلح أن نستعمر الأرض وهى خراب ، فإذا ما كثُر النسل لا يقابل زيادة فى استثمار الأرض ، فتحدث الأزمات ، ولو أن استثمار الأرض وإصلاحها سار مع زيادة النسل فى خطين متوازيين لما شعر الناس بالحاجة والضيق ، ولما أحاطت بهم الأزمات .

والآن حين تسير فى الطريق الصحراوى مثلاً تجد المزارع فى الصحراء ، وتجد القرى الجديدة تحولت فيها الأرض الجرداء إلى خضرة ونماء ، فأين كانت هذه الثورة ؟ لقد كنا كُسالى وفى غفلة حتى عَضّنا الجوع ، وضاقتْ بنا الأرض الخضراء فى الوادى والدلتا .

وإذا لم يُصلح الإنسان فى الأرض فلا أقلَّ من أنْ يتركها على حالها الذى خلقها الله عليه . لكن رأينا الإنسان يُفسد الماء ويُلوثه

---

(١) أى : أذن لكم فى عمارتها واستخراج قوتكم منها وجعلكم عُمّارها . وأعمره المكان واستعمره فيه : جعله يعمره . [لسان العرب ـ مادة : عمر] .

حين يصرف فيـه مُخلَّفاته ويُفسد الهواء بعادم السـيارات والمصانع ، ويُفسـد التربة بالكيماويات والمـبيدات ، وكل هذا الإفســاد خروج عن الطبـيـعة الصـافـية الـتى خلقهـا الله لنا ؛ ذلك لأننـا نظرنا إلى النفع العاجل ، وأغفلنا الضرر الآجل .

لقد خلق الله لنا وسائل الركوب والانتـقال ، وجعلها آمنة لا ضررَ منها : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ⑧ ﴾ [النحل]

وقـال : ﴿ وَتَحْـمِلُ أَثْقَـالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِـيـهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ..⑦ ﴾ [النحل] نعم ، وسـائل النقل الحـديث أسـرع ، وأراحتْ هذه المواشى ، لكنها أتعبتْ الإنسان الذى خلق الله الكون كله لراحته . فـترى الرجل يركب سـيارته وكـل هَمِّه أنْ يُسـرِع بها دون أنْ يهـتم بضبطهـا وصيانتـها ، فـينطلق بها مُخلِّفـاً سـحابة من الدخـان السَّام الذى يؤذى الناس ، أمـا هو فغيـر مكترث بشىء ؛ لأن الدخـان خلفه لا يشعر به .

لكن ، احذر جيداً ، إن ربك ـ عز وجل ـ قيوم لا يغفل ولا ينام ، وكما تدين تُدان فى نفسك ، أو فى أولادك .

كـذلك قبل أن نركب السـيـارات ونُسرِع بهـا يجب أنْ نُمـهِّد لهـا الطرق حتى لا تثـير الغبـار فى وجوه الناس ، وتؤذى تنفـسـهم ، بل وتؤذى الزرع أيضـاً ، كل هذه وُجـوه للإفـســاد فى الأرض ؛ لأننا ندرس عاجلَ النفع ولا ندرس آجل الضـرر .

وعليك حـين تجتـهـد أنْ تجتـهد بمـقدِّمـات سليـمة ، لتـصل إلى النتائج السليمة ، ولا تكُنْ من المفسدين فى الأرض .

ومن الإفساد فى الأرض قَطْع الطريق ، وهو أن المتلصِّص يقيم فى مكانه يرصُد ضحيته إلى أن تمر به ، والإغارة وهى أنْ يذهب المغير إلى المغَار عليه فى مَأْمنه ، فيسلبه ماله .

ومن الإفساد فى الأرض الرُّشْوة ، وهى من أنكَى النكبات التى بُلِى بها المجتمع ، وهى تُولِّد التسيُّب وعدم الانضباط ، فحين ترى غيرك يستغلك ، ويستحلّ مالك دون حق ، تعامله وتعامل غيره نفس المعاملة ، فتصير الأمور فى الأجهزة والمصالح إلى فوضى لا يعلم مداها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ(١) الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

فإياك أن تظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو يتركنا هملاً ، إنما خلقنا لمهمة فى الكون ، وجعلنا جميعاً عبيداً بالنسبة له سواء ، فلم يُحَابِ منا أحداً على أحد ، وليس عنده سبحانه مراكز قوى ؛ لذلك لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ولأننا جميعاً أمامه سبحانه سواء وهو خالقنا ، فقد تكفَّل لنا بالرزق ورعاية المصالح ، فَمن ابتلاه الله بالعجز عن الحركة فتحركْتَ أنت لقضاء مصالحه ، لا بُدَّ أن ينظر الله إليك بعين البركة والمضاعفة .

فالمعوَّق والفقير بحقٍّ - لا الذى يتخذها مهنة وحرفة يرتزق بها - هذا الفقير وهذا المعوَّق هم خَلْق الله وأهل بلائه ، فحين تعطيه من

(١) قال مجاهد : الجبلة هى الخليقة . وجُبِل فلان على كذا أى خُلِق . قال الهروى : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس . [تفسير القرطبى ٧/٥٠١٦] .